قصة قصيرة

يحدث كل يوم

محمد سعدون السباهي

في مقهى / السنترال حيث اجلس كل يوم مثل امير خلعته مؤامرة دنيئة. أبواق السيارات الداعرة عند التقاطع القريب، ولغط لاعبي الورق، صبية، وشيوخ تورثني القرف.

أم كلثوم، في الحانة المجاورة تغني (الأمل) لمن فقدوه ثلاث فتيات سائحات يدخن ويرتشفن على مهل البيرة في أقداح كبيرة، يضحكن من عجوز ثمل يحادثهن بلغة العرب الافحاح، ترنح العجوز في مشيته وانكفا وكادت حافة إحدى الموائد تشج رأسه أنهضه النادل من كتفيه متذمراً، وقاده نحو السلم الحجري..

تلفاز المقهى يعرض نساء أوروبيات يأخذن دروساً في الرقص الشرقي! وأهمس في سري ضاحكاً: إذن، من قال إن العرب ليس لديهم ما يصدرونه إلى الغرب غير البترول، وطوابير اللاجئين من كتاب وفنانين بارت بضاعتهم، وساسة أغلقوا دكاكينهم التي كانوا يتباهون بها حتى وقتٍ قريب، وولوا هاربين!

أهرب من جو المقهى، إلى شرفتها حيث تمر من تحتي أسراب من صبايا عمان، بأزيائهن الجريئة، جرأة فريدة! والسائحات اللاتي جئن من بلدان شتى، يخطرن شبه عرايا، تنعكس ذوائب من شمس عمان الدافئة على بضاضة لحمهن الأوروبي فائق البياض، فتحيلهن إلى ما يشبه الجنيات المشتعلات من شعر رؤوسهن الأشقر الناري، حتى أقدامهن الصغيرة بأخفافها النسيجية البسيطة..

يأتي المساء سريعاً أهبط وآخذ مكاني مع الآخرين عند الرصيف المقابل للمقهى، أتسلى بمنظر مئات النساء المارات، وأتمتم كالمسوس:

هذه جريئة، بفمها الشهواني الممتلئ الذي زادت من إثارته الداعرة معالجته بأصباغ الشفاه الفضية البراقة، وإحاطته بخيط غليظ بلون الكاكاو!

هذه عملية، تعرض ملابسها الضيقة جداً، ثراء جسدها الشرس في رشاقة باهرة، وحيوية مرحة.

وثالثة واقعية لاتني تتلفت حواليها وهي تحصي عدد الأعناق التي توقف أصحابها عن السير والتفتوا، صراحة، باتجاهها متملين، في حسرات مسوعةٍ الصدر النافر، والعنق التلعاء العارية التي زاد من طولها تسريحتها المشاكسة القصيرة...

فجأة هبط من السلم الحجري القريب الذي أسميه، ينبوع الغزلان: ثلاثة براكين صغيرة في جمال مهذب، هن دائماً ببناطيل بولغ كثيراً في ضيقها، مما يجعل قماشها الحسن ينغرز في قسوة، في اللحم المائي الشفاف..

ثم ثلاث أخريات صيرتهن عيونهن الوسيعة بنظراتها المتكبرة، وشفاههن المخططة بغواية المحترفات، وابتساماتهن العابثة، ثلاث قنابل موقتة!!

ثم دفعة واحدة خمس قنابل مسيلة للدموع تتدحرج كيفما عنّ لها..

توقف الباص لتهبط منه أربعة زوارق طوربيد، محملةً بصواريخ أرض / أرض..

ويستمر بتدفقه العذب / القاتل سيل الينبوع المبارك بمعدل: أربع راجمات لهب، كل خمس دقائق، لغم مشاة مساكين، كل ثلاث دقائق/ قنبلتان عنقوديتان، كل دقيقتين، كل ذلك من دون أن يأخذ الناس علماً مسبقاً بالأمر من السلطات المحلية!!

فجأة، توقفت حركة السير عند التقاطع المروري القريب، وتوقف السائقون أول مرة عن عادتهم المؤذية المتمثلة بإطلاق أبواق سياراتهم عالياً لأبسط الأسباب في نباح متواصل لتعبر، في لامبالاة مطلقة، بمشية مهيبة، شعلة الاولمبياد، وأخذت طريقها، بالمهابة ذاتها، فوضع المارة أيديهم على قلوبهم مترحمين، مقدماً، على مصير الرجل السعيد الذاهبة لحرقه..

لكزني المرة العاشرة، أحمد المشعل رجل لا يعرفه إلا محبوه، فجمعت مزق أفكاري قدر استطاعتي، ورحت أرنو نحو ثلاث ستات قادمات تلهو الريح مسرورةً بتسريحاتهن الصبيانية، يطبقن شفاههن بحركات رخية ناعسة على مخاريط الموطا الملونة، حين حاذيننا، رشقن بنظرت ذئبية، وحركن أسلنتهن الحمر، وكأنهن على اتفاق مسبق في كمرثى الموطا بطريقة تعمدن أن تكون صريحةً في مغزاها.

وسمعته يهمس، وهو يرتعد: إنهن يتحدين.

-:يتحدين من؟ حيث لا رجال في هذه المدينة.

ويأخذك العجب من موت هؤلاء القوم الجالسين كالعازبات بين أكوام البضائع يهدهدهم نعاس البلاهة، أو واقفين عند أبواب المحلات، ينادون بأصوات مبحوحة، من دون أن يأخذوا دقيقة راحة، على بضاعتهم، وقد إبيضت عيونهم لفرط محبتهم (للمصاري) أحسهم مجرد شواهد في مقبرة شاسعة وإلا كيف لا يشعرون بدوي الأنوثة الهادر، في كرنفال مستحيل، في الطرقات والأسواق والأحياء على مدار الساعة؟

يأتين من الجهات كافة: أطياف باهرة، أسراب من حمام الأضرحة، صفوف من أشجار السرو والصفصاف والصنوبر، مزهريات من الفيروز، باقات مشاعل، دوامات من طائر الحسون، مسيرات مكتظة بالبيارق والطبول والأبواق، حانات على شطآن مفتوحة، موائدها مثقلة بنبيذ الكنائس المعتق، أطباق موائد الأمراء، بساتين جلولاء تتأرجح على أنهارها ستائر الرمان الذي شقت حلاوته القشرة السميكة فبانت حباته حمراً كالجمر، بشرات سمر فاتحة وتقاطيع تعود إلى أصول رومانية، وعيون، آه من عيون الغزلان.

مكوثهن لا يدوم طويلاً، وإن هو دائم الحضور، على غير ما وعد، من الصباح حتى بعد المغيب بكثير..

أخزهن بجمرتي عيني وقلبي المرتعد، وأحلم وأنا في وقفتي المفضوحة أحلاماً أقلها عقوبته الإعدام، مع هذا أنا سادر في أحلامي، فاية قوانين ظالمة، تمنع حالماً كبيراً مثلي إن هو استمر يحلم من دون مجاهرة، على هواه؟..

خصني يا طائر الشقراق من لدنك بابتسامة ود ليتبرد قلب الغريب قليلاً.. أود لو يكون قميصك، سيدتي طائر القيامة، كفني.. أرضى أيتها اللبؤة أن يكون شالك مشنقتي.. آنستي صاحبة (الخلوي) إقبلي تطوعي لغسل شراشف سريرك، لك الأمر، وعلي السمع والطاعة.. أقسم لو تواضعت هذه الجنية ابنة السادسة عشرة ومررت كفها التي غطتها برسوم الأزهار، إمعاناً في الغواية لتحول حديد السياج الذي اتكيء عليه، إلى سياج من قرنفل..

لكن، لا واحدة منهن لديها الوقت، أو الشفقة، فتتوقف لتسمع هدير تضرعاتي..

هبطت السلالم إمرأة في أنوثة وحشية، أعقبتها أخرى في جمال عنيف، ثم ثالثة طوت المدرج بخطوات صبيانية، رشقت الواقفين بنظرات ذئبية، فالتموا على بعضهم في جزع شديد، وعاشرة نشفت الدم في أوردتي وشراييني، كانت ترتدي كنزة الصوف الحمراء أشبه بقنبلة موقوتة، تتجول لاهبة في الشوارع والأسواق من دون أن تعرف السلطات الأمنية حقيقة أمرها!!

قد لا اعرف عدد أصابعي، أو اين يقع قلبي من جسدي، وكم هي سنوات عمري الملعون، غير أنني أعرف على نحو قاطع ماذا تفعل هذه اللوليتا المتسربلة بملابس خضر حين تختلي بنفسها..

فتيات فوجئت بحقول أجسادهن وقد نضجت على نحو مبكر، وليس هناك من حاصدين، فأخذهن الأمر مأخذاً عسيراً..

ومثلما يحدث في مشهد سينمائي برزت فتاة في ميع الصبا، متخطية بطريقة جسورة حشود المارة، عارضة غبابة شعرها الأسيوي إلى شمس الرب وهوائه، تتكلم عبر الهاتف النقال، وقد تضرجت وجنتاها فرط ماتسمعه من كلمات الغزل!

صباح الخير يا قرنفلة، مساء السعادة يا صنوبرة، مرحباً يا تفاح حيفا، اهلاً يا عذوق موز مقاديشو، سلاماً يا شمام الزبير، مرحى يا طيور أهوار العراق، معذرة يا سلال رطب البصرة..

فجأة خرجت ثلاث نساء من مطعم (حبيبة) المقابل وجئن في خطوات بطيئة متراخية يجررون مؤخراتهن جرا حتى لتكاد ظهورهن الرشيقة تنكسر، حين تجاوزننا، اسمعناهن حسراتنا في سخف صبياني،

ابتسمت إحداهن للتحرش المكبوت ووشوشت لصاحباتها فانخرطن في ضحك مكتوم، ولعلهن بعد ذلك تبادلن كلاماً في (رجولة) العربي مثل:

[دعيهم يتعذبون لأنهم لا يفهمون في مغازلة النساء سوى إطلاق الحسرات، وإحراجهن بالنظرات المخبولة!!].

وقالت الثانية: [يعجبني الرجل العربي القديم، إنه ما أن يشعر بميله إلى امرأة، حتى يبادر من فوره إلى خطفها على حصانه..]

هزت الاثنتان رأسيهما علامة الإعجاب والموافقة، أما الثالثة، فذكرتهن بما تعرضت له قبل عام حين راح أحدهم يتعقبها اكثر من شهر بسيارته، ولا يسمعها غير الأغاني السخيفة، وعبارات الغزل الحمقاء..

[كنت أريده أن يكف عن مثل هذه الافعال التي لا تليق بعمرينا، وحين ضقت ذرعاً بغرامه المتردد، وعمدت إلى خلع حذائي، وتقدمت إليه متظاهرة، بضربة إنما أردت أن أجرب (رجولته!) كنت أتمنى أن يهبط، يمسكني من ذراعي في صلابة، ويقودني، عنوة إلى سيارته - وتحسرت - لو إنه فعل ذلك لمنحته أكثر مما يتمنى ويريد، غير إنه بدلاً من ذلك..]

توقفن وقمن بحركة مسرحية ساخرة حيث أنشدن معاً بصوت خفي :

[هرب كالفأر المذعور..) وصفقن بأكفهن الحرير مرة واحدة، ثم غرقن في الضحك، وواصلن سيرهن الوئيد المكروب..

هن دائماً مستحمات بالعطور، ودائماً يتسكعن في مجاميع، وشأن عامة نساء العالم، يتوقفن طويلاً أمام واجهات محلات بيع المجوهرات والملابس والعطور وقد جحظت عيونهن!.

وفي وحدتي الليلية الموحشة، في غريفتي الفقيرة، في جبل الأخضر، من عمان السنديانة الوارفة المنحوتة في الصخر، أرشف على مهل من كأس خمرتي القوية، استحضرهن واحدةً واحدة، أتوسل اليهن عبر مخيال جنوني الوشيك أن لا يذهبن إلى بيوتهن فالوقت ما زال مبكراً، أبكي لعل إحداهن تتحرر من سروالها الداخلي المخرم بتلك الحركات التي حين تقوم بها امرأة صوت عالياً في أكمة فؤادها طائر الغرام، ترتعد لبذخها جبال الهملايا!.

عند هذا المشهد العنيف أتوقف موبخاً نفسي التي أعذبها في نرجسية مقيتة، لاعناً ساعة ميلادي، والقابلة التي لم تجهز علي، ومسقط رأسي، وضابط الجوازات الذي سمح لي بمغادرة العراق، وأمن (طريبيل) الذي وافق هو الآخر على مواصلة سفري، والسائق الذي أوصلني إلى عمان في ذلك الصباح الشتائي الموشوم برذاذ المطر، ولعل لعنتي العظمى الأبدية منصبة ليل نهار على أولئك الزمر المشوهة التي استبدل الله قلوبها بحصى، حيث سورت تلك الاجساد الربانية بسواق طافحة بالدم!.

الموسيقى السومرية ((الروح أولا))

نعيم عبد مهلهل

ترتقي الموسيقى بالحياة مثلما ترتقي الفلسفة بالفكر، وهي تعبر في معناها عن عميق الروح. وولادتها تأتي من تجانس أحاسيس عدة تنطلق من فعل آلهة ما. وهي كما وصفت في التدوينات الأولى ((الأصوات المتناغمة التي نريد بها أن نستحضر الإلهة)) وفعلاً كان السومري يحث من خلال صوت الموسيقى الروح الهائلة الأخرى التي يظن إنها مخبأة في مكان ما من زوايا العالم. لهذا بدأت الموسيقى مع بداية الفهم الوجودي لأشياء الحضارة، وربما تكون هي اللصيق الأول للغة حيث ادركت الدراسات أن تناغم الموجودات الطبيعية في عناصر عدة كهديل الحمام، وخرير المياه، وهدير العاصفة، مثلت لدى الإنسان سياقات صوتية عبر بها عن ردود فعل اراد بها السيطرة على شيء.

ويمكن أن نرى في تصوير الألواح الباقية إن المرأة السومرية لا تحمل ولدها إلا على الجهة التي يقع فيها القلب. وهذا أكتشف بعد آلاف الأعوام من قبل العلماء. أن صوت القلب ينبض بهاجس موسيقي خاص يدفع الطفل إلى الهدوء والنوم، ولقد تركت لنا المدونات الكثير من الترتيلات والأغاني والأشعار التي تمت بهاجس الموسيقى إلى الحياة والمجتمع في سومر، وكان للسومريين أقدم نظام موسيقى في العالم، ويمكن أن نسوق كلام الدكتورة ناريا رئيس المجلس الدولي للموسيقى قولها (أن النظام الموسيقي الأقدم الذي نعرفه هو النظام السومري وربما كانت ذروته قبل ٦٠٠٠ سنة مضت، هي الوضع الأكثر قدماً في الأفكار الموروثة حتى من عصور ما قبل التاريخ، وكانت الموسيقى جزءاً ضرورياً من الحياة الطقوسية السومرية).. هذا الكلام يقودنا إلى أن سومر كانت تعي جداً ما يمثله هاجس الموسيقى لأنه كان يعبر في مدلوله الحضاري عن ايجاد ثنائية الوجود بين الفرد والآخر الذي يحس بقوة تأثيره على أشياء العالم ويقصد الآلهة. إذ لم تبدأ الموسيقى السومرية كحاجة ترف ملكي، إنما كانت طقساً يمتد إلى فعل الحياة وإنما ذاكرة الخصوبة والموت واستحضار المدلولات التي يمكن أن تؤثر في سير الحياة، كدعوتهم في أعيادهم إلى الضرب بالآلات الموسيقية ومنها القيثارة حتى يسعد عشتار ونبدأ بموسم خصب وزراعي جيد. وكان شارع الزواج في لكش يعج بمجاميع من ضاربي الصنوج والقيثارات، لأن سومر كانت ترى أن بهجة أيامها لا تكتمل إلا مع الموسيقى، وأن وحي الموسيقى يؤدي إلى إظهار قوة الروح وديمومتها حتى بعد موت الجسد، كما في حديث الدكتورة نارايا ناميثون حيث تقول (كانت طقوس هذه الهياكل تبدو ذات نظام موسيقي عالي التنظيم ولدينا عنها إحصاءات دقيقة ووثائق مضبوطة، وقد غمر المناطق المجاورة شيء من مجدها ومكتسباتها). إذن كان تأثير الموسيقى السومرية تأثيراً كونياً وهي كما الشعر يمكن أن تكون أداة ارتقاء وتحول نحو المثل الكونية التي أعطت العالم مزيداً من منارات المعرفة، وهذا يقودنا إلى الأعتقاد أن الهاجس الموسيقي مولود في الذاكراة السومرية قبل الشعر وقبل اكتشاف الفعاليات الحضارية المدونة كالرياضيات والقوانين والتدوين بأنواعه النثرية كالأشعار والأساطير والمراثي.

لقد حددت الموسيقى السومرية في قوة تأثيرها الروحي والأخلاقي جانباً كبيراً من شخصية الفرد الذي عاش على هذا الأديم الذي رسم البدايات الواضحة في التاريخ، وكانت تعبر في مستواها التقني العالي عن قدرة عالية في التفكير لاسيما إنها كانت طقس شائع ولم تقتصر على فئة معينة من البشر أو طبقة اجتماعية. وقد أرتنا بقايا الحضارة السومرية أن الرعاة كانوا يحسنون مناداة عشتار بكلمات رقيقة فكانت تستسلم لخداعهم، وعندما تصحو من ثمالتها تثأر منهم بان ترسل اليهم الذئاب لتنهش أغنامهم. إذن حتى الفكر الأسطوري كان يعطي للموسيقى قوة التغلب على صمود إحساس الإله تجاه الشيء الارضي. وكانت الموسيقى لصيقة لحياة الإنسان السومري وموته، وهذا ما قرأناه في مذكرات العلامة الاثاري ماكس مالون والذي شارك العلامة ليوناردو وولي في الكشف عن مخابئ وأسرار وكنوز المقبرة الملكية في أور عندما يقول في صفحة ٥٢ من المذكرات (كان مشهد المقبرة الملكية رائعاً عندما كنا نعمل جميعاً. وأذكر أن أحد القبور الملكية ضم ما لا يقل عن ٧٤ شخصاً دفنوا أحياء في قاع المهوى الملكي العميق. بدأ عندما كشفنا سجادة ذهبية اللون مزينة بأغطية الرأس لسيدات البلاط، متخذة أوراق شجرة الزان، وعليها آلات القيثارة والقيثارات (Harps and lyres)التي عزفت الترنيمة الجنائزية إلى النهاية).

لقد اقترنت هذه القيثارات بذوق الملوك والأمراء كثيراً، وكان أمراء وملوك سومر يحسنون العزف على الآلات الموسيقية وفي تقديري من جعل الموسيقى مستوى لرؤية ثقافية معينة دليل على رقي حضاري كبير وهذا ما كشفته لنا المدونات وقرأناه في أوراق السيد وولي ومذكرات مالوان، وما ترجم من آلاف الألواح التي وجدت في مكتبة الملك الآشوري (اشور بانيبال).

أن وعي الموسيقى في الذاكرة السومرية بدا خيالاً مفرطاً في الجمالية، وأظهرت تبيانات واضحة في تقدير الفرد داخل المجتمع. إذن في هذا المعنى نرى أن الموسيقى تمثل طموحاً اجتماعياً يريد أن يرتقي به الفرد وهذا يجعلنا إلى الأعتقاد أن المجتمع السومري هو مجتمع يقترب من يوتيبا خاصة به وهو مجتمع قريب إلى المثالية التي هي مفقودة اليوم في أغلب المجتمعات، ولتأكيد هذا الكلام تقول الدكتورة دشس جيلمن ((Duchesne Gailemin من جامعة ليبيج في بلجيكا. (كان الموسيقيون فئة حرفية مهمة في ما بين النهرين، وأضحى بعضهم موظفين ذوي مناصب رفيعة في البلاط. كانت الموسيقى تلقن في مدارس بلاد الرافدين وكان التلميذ غير الموسيقي موضع أزدراء زملائه). وبهذا تحتفظ بقيمتها وفق سياق الرؤى الحضارية. وهي في انتظام سعيها الروحي تحاول أن تدرك ماهية المادة تلك التي سعى الإنسان منذ البدء إلى أن يجدها، وعندما لم يعثر عليها في حياته الارضية، جاهد لأيجادها في فردوسه المنتظر، فقد أذهلت ليوناردو وولي الصفوف المنتظمة مثلما تتصاعد السلالم الموسيقية للهياكل العظيمة المدفونة مع الملك في قبره البارد وكانت القيثارات - وأهمها صندوق الموسيقى - الذي أسماه وولي - (الراية الملكية) -، ما زال فيه أثير بقايا أنغام تخلط أجواء الذاكرة الهائمة للفرد السومري في بحثه الدائم عن خلوده. وهذه الفكرة - اي فكرة الخلود - مثلت الهاجس الأرقى في الأدبيات السومرية، وكانت ملحمة جلجامش تمثل جانباً حيوياً فيها، وأعتقد إن الحانات التي تحدثت عنها الملحمة كانت تضج بالعشرات من ضاربي الوتر. وربما البغي التي أغوت انكيدو في العودة إلى الحياة البشرية أستخدمت الموسيقى مع مفاتن جسدها. لذا مثلت الموسيقى في بعض الملاحم والقصائد سمة الوصول إلى قدرة الإله على حل المعضلة الإنسانية التي تصيب البشر في بعض أزماتهم، وكان لوجود الموسيقى مع قدرة الآلة هو الفرج الذي يحل كل شيء ويبين العلاقة الوثيقة بين الفعل السحري للالهة والفعل السحري للموسيقى، فهذا رجل من بابل يطلب الرحمة من مردوخ على النحو الاتي:-

لساني المعقود الذي لا يقوى على النطق

حل عقدته فهل علي الكلام.

حنجرتي التي ضاقت وأختنقت

أرجعها إلى وضعها وصارت تغني كالمزمار

إذن حلت العقدة لهذا الداعي مع الموسيقى وليس مع شيء آخر، وبهذا يكون فضل الموسيقى قد ارتبط بأعمق مدرك روحي لدى إنسان وادي الرافدين فكان له أن يضع في أدبه سطوراً تعبر عن قيمة الوعي بإحساس الذي يولد من الوتر، ويحاول أن يخلق فئة من مدركي الحس أولئك الذين حملوا على عاتقهم التبشير بحضارة سومر العراقية التي كان لها الريادة لتكون ذاكرة التاريخ وشمعته الأولى.

ولكي نتخيل النقاء الروحي للموسيقى السومرية، علينا أن نفترض عالم الفنتازيا السومرية بمكنوناته البيئية وتكوينه الاجتماعي، وكمن يضع سيناريو لحياة مدينة ستكون مدينة أور أشهر مدن سومر هي المدينة المفترضة، وكانت أور في مجدها الذهبي أيام السلالة الثالثة تحوي شعباً واعياً بدءاً بالملك وحتى الفلاح البسيط، ولكن الجميع يلتقون في فكرة أن تكون الحياة السومرية هي نمط جميع يختلف عن حياة الشعوب المحيطة، ولذلك كانت فكرة اكتساب ملامح الحياة السومرية فكرة عامة عند كل الشعوب المجاورة من أعالي الفرات وحتى نهايات مملكة عيلام. في هذا العالم تكون سرمدية الحياة اليومية معتمدة على طقوس بداية يوم العمل أو التوجه إلى ساحة القتال أو المعبد، ولكن بنية النظام الاجتماعية كانت متكاملة، حيث كانت هناك المدارس والمعابد وبيوت الحكمة والحانات وحوانيت البضاعة والصناع. وهذا البناء ذو بنية تقرب حتى من بعض مجتمعات القرن الحادي والعشرين، وفي ظل هذه الأجواء كانت الموسيقى تمثل حيزاً كبيراً من الهاجس الثقافي لهذا المجتمع بل تصاعد تأثيرها ليصل إلى أعلى المناصب حيث أكدت الاثاريات أن حفيدة الملك الاكدي نرام سين كانت موسيقية وأن الملك السومري شولكي كان يفتخر بانه يجيد الغناء والعزف على العديد من الآلات الموسيقية وهذا يقودنا إلى: إن تعدد الآلات يمكن أن يخلق ما يسمى اليوم فرقة اوكسترا مع مؤدين حيث تتدرج مرتبة المغنين في الوسط الموسيقي السومري فيسمى المغني الكبير (نارساكال) وقد يصل هذا المغني إلى أعلى المراتب كما حصل مع المغني السومري (نام - خا - ني) ليصيح حاكماً لمنطقة لكش خلفاً لحاكمها المشهور كوديا. وهكذا تكون أور موطنا لفتنة الروح، والنقاء الذي يظهر وجه الحقيقة التي سعى الإنسان إلى ايجادها عبر مدركات عديدة كالشعر والصلاة وتدوين الملاحم، إن الموسيقى هي واحدة من اجمل مظاهر الدهشة التي تكشف لنا مفاتن الحسن في حياة كان الجميع يتصورها إنها مجرد أحجار وألواح تزين متاحف العالم، ولكنها إلى اليوم تنبض بالحياة. فانا عند لحظة الوقوف والتأمل لقيثارة أور الواقفة بهدوء المايسترو أمام حشد من الموسيقيين وسط صندوق الزجاج، ارتد في رؤى الوجد والحلم إلى عالم المثل العظيمة، العالم الذي كانت ذاكرته من ذهب وعشب، وكانت تنمو على نقاء الأطروحة الكونية، حيث لا ناطحات سحاب ولا مسارح فخمة ولا طائرات تلوث فضاءات التأمل في تلك المراعي الخصيبة التي تمتد أمام أور حتى تصل إلى ابعد البطائح، وكانت هناك أفواج الرعاة والصيادين يطلقون صوت الأمل الملون والمعجون برغبة اكتشاف حقيقة لماذا ولدنا ولأجل من؟ حيث تأتي الدوافع الإيمانية بالانتماء إلى القدر السماوي الواحد هي الفكرة التي تهيمن أخيراً، فكان الأنبياء في بعثهم إلى تلك الشعوب ومنها شعب سومر هو تأكيد على أن هذا التناغم يحتاج إلى نقاء كلمة تجمع الصوت الجميل مع النداء السماوي بالتوحيد، عندها تدرك سومر حقيقتها الجديدة وتعيد إلى مطلق فلسفتها رؤى انسانية رصينة تجعل من احترام الحضارات لهيبتها وقدرتها على أن تبقي الريادة لها مهما تقادمت العصور وتنوعت الحضارات. لأن هذا يقودها إلى بدء جليل تستطيع أن تتخيل فيه احلام الموسيقى وهي تعزف لحظة انبعاث الشيء إلى مستوى قد يفوق قدرات الذهن الحاضرة اليوم، والتي قد تضيع في رؤى موزارت أو صوت أم كلثوم. ذلك إن المتاهة السومرية هي نتاج انفعالات متداخلة في أروقة الميتافيزيقيا، لهذا نجد إن القيثارات المدفونة في اقبية ملوك سومر عند موتهم تحدد إيمان الانسان السومري بالبعث الآخر، وأن الوجود المكمل ربما لا يأتي سوى عندما تطلبه الموسيقى. ويبدو أن ليوناردو وولي انتبه إلى هذا الشيء في نهارات البحث عن كنوز المقبرة الملكية ليقول في أوراقه (إن رؤيتي للقيثارات قرب الاجساد المدة بهدوء. أرسل في صدري عالماً من بهجة الموسيقى). هكذا إذن أورثتنا الموسيقى ظل الشيء المحسوب وهي في مقدمة الافعال الإنسانية التي تدرك فيها خيارات الظل المشع على عبادات الآخر. وربما ندرك في الموسيقى السومرية سرمدية الذات التي تفكر بتجاوز معضلة اليوم الصعب عندما تستعبد من قبل ثري أو كاهن أو أمير لتجد في الموسيقى سلوة الوصول إلى حكمة القناعة بان الالهه تضع في الموسيقى مسببات قدر الولادة لكل سومري وسنقرأ في هذه المدونة. ما نراه تأكيداً لما سبق ذكره:-

أضربي في البوق. وأعزفي على الوتر

سأرى في ذلك الطريق...

وأشاهد المشيئة المطلقة..

أن إرادة الآلهة كتبت قدري..

وشاهدت في عزفها حياتي القادمة.

بهذا التعبير فإن الرؤية أكدت صلة الموصول بين حقيقة أن يكون الانسان وارثاً للهم الأكبر وبين أن يكون المدرك الأول للحلم. ويمكن أن نقول إن البهجة التي ظلت سومر تبحث عنها طوال عصورها المجيدة قد ارتبطت بوعي الموسيقى وما احتفالات الموت الجنائزي في اقبية مقبرة اور المقدسة إلا تأكيد على ذلك وسوف نتخيل في مستوى وعي التاريخ الذي نملكه من خلال الأثر والمدونة وما فعلته الأميرة السومرية بو - ابي. الملقبة خطأ بالأميرة شبعاد في قبرها ذي الرقم (٨٠٠) والمكتشف من قبل الاثاري وولي. حيث بدت رطوبة القبو الملكي في ظهيرة تموز ترسل اشعاعات باردة من موسيقى غارقة في القدم.

وكانت عظام الأميرة. تصطف برقة الارتخاء إلى صدى القيثارات التي تبعث في المكان الفسيح الرغبة في ابقاء الزمن واقفاً على قدميه وقد لونت افتعالات المشهد متوازيات منتظمة من ايقاعات بعيدة. وكانت موسيقى ذلك العهد تدرك بقايا الغاية المتماثلة في صورة الخلق. لقد أدركت الأميرة شبعاد - بو - ابي - إن الرؤية القدرية للموسيقى تمثل حاجة البدء ليكون فكانت سومر تستحضر أحلامها بالموسيقى، مثلما يستحضر الكهنة آلهتهم المميزين..

يقول ليوناردو وولي في أوراق حرص على كتابتها بالحروف اللاتينية (كانت الموسيقى توازي لحظة التفكير بخلق ما، وأن الموت اللذيذ الذي ساد في المكان، أعطى المشهد رغبة مباحة)، ومن هذا ندرك في كلام العلامة وولي إن الموسيقى تجعلك تموت بسعادة. وهذا ما فكر لأجله السومريون، وجعلوا الموسيقى واحدة من شواهد حضارة، لم تنم على جسدها أشواك الحروب، بل فرضوا لحياتهم نمطاً خاصاً من الارتقاء بالحاجة للوصول إلى المعنى. وكان القبو في موسيقاه الشعائرية يؤدي غرضاً واحداً هو الإمساك بسعادة العالم الآخر، وهذا ما كان يظنه السومري أمراً نستطيع أن نحققه مع الموسيقى فقط.

كانت الموسيقى وما زلت تفرض رهبتها على السماع الذي ينتقل بقدرة قادر إلى مكامن الروح فينا. ويبدو لي أن الروح البشرية وسعت من قدرتها على ألفة مع هذا الهاجس، وكان بمقدورها أن تصل إلى ابعد من ذلك لولا التداخل الحضاري، وتلك المساحات المتطرفة في الرغبة الانسانية للوقوف على اشياء أخرى. أهل سومر لم يدركوا هذا بفطرة إنسانية صنعتها بدائيات الخلق، لقد كانوا يدركون الوصول إلى مستوى الفهم الذي تصنعه الموسيقى وليس إلى مستوى (السماع) بل الروح أولاً. لذلك هيمنت الموسيقى على واحد من ارقى طقوس التفكير لدى الذات السومرية وهو (طقس الموت) أنه الفيض الذي تتداعى عنده أحلام الحكماء والشعراء وحتى الآلهة ولذلك كان قبو الأميرة بو - ابي يتحدث في مشهده الجنائزي الهادئ عن روعة الوصول إلى الذروة. وكنت أنا نفسي قد دخلت إلى ذلك القبو ولكن بعد خمسين عاماً من اكتشافه ونقل جميع محتوياته إلى متاحف أوربا. ورغم هذا كانت الرطوبة ذاتها والقيثارات ذاتها تمنح الرغبة شعورنا بادراك شيء ما. شيء خالد فينا كما القصائد المذهلة. وكان عازف القيثارة وصورة السيدة الملكية شبعاد يرسمان على جدار القبو وأرضيته حركة مرتبكة لكائنات من كوكب آخر تذكرني بفرضية بعض العلماء من ان السومريين ربما هم أقوام جاءوا من كواكب أخرى وهذا يعطي الموسيقى بعداً آخر غير ما نفترضه في دراستنا هذه.